المثقفون العرب ودور النعامة...

الدكتور عبد العزيز المقالح

اخطر من الهزيمة ــ في تقديري ــ هي محاولة اخفاء ابعاد الهزيمة واستعادة الدور المعروف لحيوان النعام. ويبدو ان العرب منذ فترة غير قصيرة ــ وفي طليعتهم مثقفوهم ــ قد استطابوا دور النعام، واقتنعوا به وسيلة لمواجهة التحديات الكبيرة. ومن الواضح ان دور النعام لا يقتصر على الاختفاء من الخطر وانما هو يمتد الى محاولة اقناع النفس باخفائه، وهو باليقين عين ما يفعله ــ ويالاسف ــ عشرات بل مئات من مثقفي المرحلة الراهنة في الوطن العربي. ومن له قدرة على متابعة احداث السبعينات يدرك تماماً اننا كنا منذ هزيمة ٥ يونيو (حزيران) نعيش في هزيمة مستمرة. وما حدث عشية تلك الهزيمة من تمرد منفعل، يتكرر الآن وأخشى ان يتكرّر الى ان تستكمل الهزيمة فصولها النهائية.

واتذكر بالمناسبة انه قد قيلت اشياء كثيرة عن اسباب تلك الهزيمة، كما قيلت اشياء اكثر عن الهزائم المتعاقبة، وفي مقدمتها رحلة السادات الى القدس، وهي اخطر الهزائم العربية وافظعها لانها الاستجابة المهنية لهزيمة حزيران. وقد كان الاسرائيليون يتحدثون بعد هزيمة حزيران ــ عن توقعهم لهاتف الاستسلام، وكان موشى ديان أو غيره من صقور الصهيونية قد اشار الى انتظاره لصوت عبد الناصر يأتي عبر اسلاك التليفون، لكن عبد الناصر الجريح والشجاع لم يتحدث في التليفون، وشاء ان يكون له مع الاستعمار والصهيونية حديث آخر، غير أنه مات متأثراً بجراحه قبل ان يستكمل اسباب الرد، وترك الفرصة للسادات الذي لم يواصل الاعداد للرد على الهزيمة من منطق الأمة الواحدة ومن منطلق الكرامة الوطنية وانما من موقف الخيانة والتهالك والاستجداء، وكان صك الاستسلام الثمن الأول للهزيمة الاولى وبداية لبقية صكوك الاستسلام والمدخل التراجيدي الى بقية الهزائم..

وما حدث لنا بعد الهزيمة الأم، وما حدث لنا بعد تلاحق الهزائم، وما يحدث لنا الآن ليس سوى التعبير الطبيعي عن دور النعامة الذي مارسه المثقفون العرب بعد الهزيمة الأم، وعن القبول بالعودة الى المغارة بعد اطلاق بعض القصائد الغاضبة والكلمات الحماسية التي لا تحدد ابعاد الخطر ولا توقف مد التدهور. واذا كانت الهزائم المريرة تشوّه بعض النفوس وتخنق الرؤية الصحيحة عند بعض المثقفين، فان حزيران وما اعقبها من هزائم لم تشوه نفوس المثقفين العرب وتخنق ابعاد رؤيتهم وحسب وانما احالت الكثيرين منهم الى شعراء يستهويهم الرمز ويستولي عليهم نوع من التفاؤل الطوباوي. ولم يقرأ المواطن العربي ما يجعله يدرك حركة الخطر، ولم تعد مهمة الثقافة هي الكشف وانما التبرير. ولم تحظ الديمقراطية وهي حجر الزاوية لإصلاح ما يعاني منه عرب القرن العشرين بأي جهد يذكر، وظلت الهزيمة كالانتصار من شأن حكم الفرد المطلق..

كما ان ما حدث ويحدث لنا ليس سوى تعبير عن غياب الثقافة الوطنية. لقد ظهرت الثقافة الحزبية واثبتت وجودها، وظهرت ثقافة السلطة الحاكمة واثبتت وجودها، وظهرت ثقافة المعدة، وثقافة المعلومات، وكانت اكثر حضوراً وفعالية. الا ان الثقافة

الوطنية لم تظهر، والثقافة الوطنية ــ في تقديري الخاص ــ لا تتعارض مع الثقافة القومية ولا مع الثقافة الروحية ولا مع الثقافة الانسانية، وانما هي جوهر كل هذه الثقافات، وهي تحمل عقلية شعبها وتكون معجونة بمشاكل الواقع الوطني ومشبعة بهمومه، نابعة من احلام الانسان العادي ومن مشاركته لا من قراءة الكتب والمداولات اللفظية.

لقد اثبت انحدار الواقع العربي الراهن غياب الثقافة الوطنية، كما اثبت ان معظم المثقفين العرب لا يتكلمون لغة وطنهم وانما يرطنون ويرددون شعارات هي في أحسن الاحوال سابقة لأوانها، وهي لا تصنع شيئا سوى استثارة العداء ومساعدة أسوأ ما في الماضي على الانتعاش. ولأنهم كذلك فإن كل مثقف منهم يلتقط على هواه شكلا من اشكال هذه الثقافة المعلقة في الفضاء، ويذهب يفاخر بها المنافسين. والأدهى والأمر في موضوع الثقافة العربية الراهنة ان اصحابها لا يستطيعون الخروج بها الا من خلال حاكم ما، فهم يقدمون له حصيلة تفكيرهم، فإن كان يساريا فالضرورة تستدعي تنظيم وترتيب هذه الافكار بحيث تتلاءم مع يساريته الحاكمة، وان كان وسطياً عالجوا هذه الافكار ايضاً لكي ترضي الوسط، وان كان يمينياً اعدوا الثقافة في المستوى المطلوب. وحتى لا أبالغ في الاساءة الى المثقفين العرب، أعترف ان الذين اشتغلوا منهم في صفوف اليمين قد كانوا قلة لا تذكر، وان معظم ثقافة اليسار العربي العريض قد أهدرت في خدمة حكام يدعون في بداية الامر انهم كذلك، وما تبقى منها قد أهدر في جدل عقيم وعداء عفن فيما بين اليساريين العرب انفسهم، فاليساريون العرب ــ كما هو معروف ــ لم يخرجوا من كتاب واحد، واذا كانوا قد خرجوا من كتاب واحد فقد خرجوا من صفحات مختلفة. ولذلك كان لا بد ان يختلفوا وان يتحاربوا، وان تكون حربهم على انفسهم أشد من حربهم على الاعداء. وبالنسبة لنا، نحن في اليمن، فقد كان الخلاف بين المثقفين انفسهم أشد ضرراً بالحياة السياسية والاجتماعية لم يكن لأية قوة في الارض ان تلحقه بالبلاد، واستطاع واحد من مدّعي اليسار ان يلحق باليسار الوطني ضرراً لم يعرفه منذ بداية تكوينه، وبلغ به التشنج وتطرف الكلمات الى إلحاق الأذى ومحاولة تشويه ادوار بعض من يمكن ان يكونوا أساتذته لو أنه كان يسارياً. حقاً.

وما يحدث في اليمن حدث في اقطار عربية اخرى، حيث اشتغل مثقفو اليسار بأنفسهم وبالصراع مع خصومهم وبتوضيح وتبرير مواقفهم، وانكمش دور الثقافة، وبدأ الجيل الشاب يبتعد عن ثقافة الخصومات والمنازعات ويتراجع نحو الثقافة السلفية ويدير ظهره للثقافة الحديثة بكل نظرياتها وفلسفاتها وبكل ما تدعو اليه من وعي بالاخطار. وفي ظل هذا الامتداد الخطير بدأت صرخات الدعوة الى اعادة النظر وتقييم المسار. وكان بعض هذه الدعوات مشبوها ويدعو الى الخلاص من كل صلة لنا بالعصر ليتمكن الاعداء في ظل الارتداد الشامل من افتراس الارض والانسان، وارتفعت وما تزال ترتفع اصوات صادقة تدعو الى نبذ التعصب والى الحوار مع النفس ومع الآخرين والى الالتزام العميق والواعي بفكر الثقافة الوطنية، فقد تبين ان الحوار مع الثقافة الحديثة والذي تم بالامس القريب لم يكن واعياً ولم يكن الانتماء اليها في معظم الاحيان صادقاً وتعبيراً عن اقتناع داخلي عميق، وانما كان لوناً من المحفوظات ومن النفاق الطلابي، وقد ساعدت الجامعات العربية في ظل الخوف والارهاب على قتل المواهب وقتل الشجاعة الادبية والفكرية واضطرار الطالب الى مجاملة الاساتذة لكي ينجح في نهاية العام. وعندما يترك الجامعة يجد نفسه في جامعة الحياة امام النوع نفسه من اساتذة الوظيفة، وهكذا يسقط في النفاق وفي الانتماءات الكاذبة ويتكاثر الانهيار ويتعاظم الانفصام، وتتحول الوطنية، التي هي جهد وعرق وممارسات يومية في حقول العمل المختلفة، الى مجموعة من الشعارات الجوفاء والبلطجة الوقحة، وتتحول الثقافة من اداة معرفة وتنوير الى كلمات للسباب البذيء والاتهامات المتناقضة، ومن وسيلة تحليل وتفسير لما نعاني من أخطار الى اصوات مفرطة في الذاتية والانانية وتصيّد الأخطاء، ومن نظرية ومنهج الى برامج جامدة ميتة معزولة عن الجماهير ومستعصية على الفهم.

لقد اهتزت صورة المثقف العربي في عيون الجماهير العربية وفي قلوبها، سواء كان هذا المثقف مفكراً أو شاعراً أو صحفياً أو ناقداً أو روائياً، والادهى والأمرّ أن صورة المثقف العربي قد اهتزت في نفسه هو، فقد اثبتت المعوقات انه ليس في مستوى التحدي، وثلاثة ارباع المثقفين العرب الملتزمين مهاجرون عن أقطارهم يتلمسون الراحة او العزاء في أقطار اخرى او في بلاد بعيدة، ويبررون بالهجرة والتشرد فشلهم الذريع عن مواجهة الواقع. نحن نعيش طلائع عصر النهضة، والصمود والاستبسال في التضحية ضريبة لا بد ان يؤديها المثقف النهوضي راضيا مختارا، ولوان المثقف الاوروبي لم يصمد في بداية عصر النهضة لمحاكم التفتيش، ولم يشعل بدمائه نيران الثورة الفكرية والصناعية لما تغير وجه اوروبا، ولما خرجت من ظلام القرون الوسطى. فهل يستطيع المثقف العربي ان يراجع دوره دون ان يتراجع وان يتعرف من خلال ضميره على نقطة الانطلاق الصحيحة بعيداً عن المزايدات والمناقصات، وبعيداً عن التقليد والانتقائية؟!

ان المثقفين الوطنيين يخرجون من تراب اوطانهم. فهل خرج المثقف العربي من تراب وطنه العربي الكبير، الوطن الواحد ذي اللغة المشتركة

والمصير الواحد ام انه خارج من عباءات الطائفية والقبلية والعشائرية؟ وهل انتماءاته الجديدة من أجل هذا الوطن ام انها اثواب تخفي تحتها مشاعر التمزيق والتبديد؟! لعل نظرة واحدة الى سلوك المثقف العربي، وليس الى اقواله، تجعلنا ندرك ان هذا المثقف لا أمة له، وأنه اقليمي، طائفي، عشائري، يعيش التصدعات الاقليمية والانشقاقات المحلية والمنازعات القبلية صامتاً، وان لم يكن مشاركاً ومباركاً، فكيف له ان يكون مثقفا وان يصير عربياً؟ أين هي قيم الثقافة وهي قيم تحكم مسار المجتمعات وتضع المقاييس والمعايير وتضع الفواصل والحدود بين ما هو عظيم ونبيل وبين ما هو رديء وحقير؟

المطلوب من المثقف العربي الآن، ان كان حقا كذلك، المطلوب منه هدنة مؤقتة عن إذكاء نار الخلافات بين المثقفين لانجاز المهمة الاولى، وهي مهمة تحرير الانسان المسكون بالتعاسة والخوف، وتأكيد وجوده الانساني، وترسيخ ابجديات الديمقراطية لجميع العرب، حتى يشعر كل مواطن عربي، في قلب هذا الوطن او في اقاصيه، بأن الوطن وطنه حقاً، وأنه ينبغي بل يجب الدفاع عنه وافتداؤه وابتداع البطولات في مقاومة اعدائه. وحتى يتأكد ذلك نكون قد أقمنا جداراً قوياً ومتيناً ضد الهزائم وضد اغتصاب الارض، اما اذا استمر الحال على ما هو عليه، فان الكارثة قادمة والضياع الشامل مؤكد، ولن تستطيع أية ثقافة في الدنيا اقناع مواطن عربي واحد بالوقوف ضد الاستعمار والصهيونية في حين ان سياط الانظمة ــ الوطنية ــ اللاوطنية تلهب ظهره وتسحق وجدانه.

ولأننا ــ نحن عرب القرن العشرين ــ قد تعودنا ان نعقّب على كل ملاحظة، وعلى كل حديث عن كل إشكالية معينة بالسؤال المكرور: وما الحل؟ فانني اقترح نوعاً من الحلول في النقاط التالية:

أولا: العمل على جدولة المهام الاساسية للمثقفين، الأهم فالمهم ودون مبالغة.

ثانياً: الوقوف في وجه ما يمكن تسميته بالمزايدة القاموسية وسيطرة اللفظية على الواقع، وادانة التمرد لذات التمرد والرفض لذات الرفض.

ثالثاً: اعادة النظر في موضوع التحديات التي تواجه الانسان العربي واعطاء الاولوية للتحديات النابعة من التخلف.

رابعاً: ازالة الجفوة المفتعلة بين التراث والعصر، بين الماضي واللحظة الراهنة، لا بقصد اكتشاف الجذور الصحيحة لإقامة أساس متين تقوم عليه الدولة العربية القادمة، وانما لكي نرى كم نحن متخلفون بمقاييس العصور القديمة وليس بمقاييس هذا العصر.

خامساً : محاولة إيجاد علاقة وثيقة بين القول والفعل لكي تصبح الثقافة وسيلة تطوير طبيعي وأداة تعبير عن امكانية الانسان وقدراته الذاتية على التغيير، لا مجرّد توصيف للأحلام والرغبات.

سادساً: الاكبار من شأن الحرية ووضعها في مكانها الصحيح من الضرورة البشرية التي لا بد من توافرها بشروطها الصحيحة كأهم عامل من عوامل حماية الروح المعنوية للانسان وأعلى حافز للابداع والابتكار.

سابعاً: ان يفرق المثقفون بين ما هو حلم وتوق ومستقبلي أو (شاعري) وبين ما هو ممكن وضروري (واقعي) فقد قفزت بهم الاحلام والصبوات وانقطعت بهم ثقافتهم المتقدمة عن ثقافة مواطنيهم فذهب بعضهم يبحث له عن وطن يتلاءم مع ثقافته ومستوى وعيه، بعيداً هناك في لندن وباريس، وتحت مبررات الضغط المعاكس من جانب الواقع والاضطهاد القمعي السائد.

ثامناً: البراعة في محاكمة النفس كالبراعة في محاكمة الغير، فالمثقفون العرب بارعون جداً في نقد الآخرين ومحاكمتهم ولكنهم امام الذات عاجزون.

تاسعاً: اعادة الثقة الى الكلمة باعتبارها صوت الضمير وقاعدة التنوير والتسامح.

عبد العزيز المقالح
مدير جامعة صنعاء مركز
الدراسات والبحوث اليمني

دار الآداب للنشر

سلاسل

دار الآداب للصغار

- غنّوا يا أطفال (١٠ اجزاء) للاستاذ سليمان العيسى
- شعراؤنا يقدّمون أنفسهم للاطفال (١٠ اجزاء) » » »
- سلسلة « صبّاح » للاستاذ زكريا تامر
- قصص مختلفة » » »
- تراثنا بعيون جديدة لمجموعة من الادباء
- اجمل قصص الاطفال في العالم

دار الآداب شارع المزرعة، بناية مركز الكتاب، ص.ب ٤١٢٣ تلفون ٨٠٣٧٧٨ ـ ٣٠٢٩٨٦